خطبة صلاة الجمعة 26/8/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم بركة القرآن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15 – 17].

قال المفسرون: (ردَّ اللهُ على من ظنّ أنّ سعة الرزق إكرام وأنّ الفقر إهانة، فأخبر أنّ الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته) فصحّحت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ما تعدُّون الصُّرَعةَ فيكم؟»** قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذاك، ولكنه الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغضب»** وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه».**

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجّه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالاً وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضنّ به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة الثالثة من سلسلة خطب عنوانها: "مفاهيم تحتاج إلى تصحيح" جاءت لتوضيح وتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه، والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم بركة القرآن**

أيها الإخوة:

البركة هي كثرة الخير ودوامه، وقد ارتبطت بركة القرآن بعقول كثير من المسلمين بقراءته وحسب، بعيداً عن فهمه والعمل به والتحاكم إليه والتفكر فيه، فقراءة القرآن بركة، وحسبك.

ولعل قراءته –كما يقولون- تفك أسيراً، وتسهل ولادة، وتنصر جيشاً، وترد مسافراً، وتنجح طالباً، وربما تدخل ميتاً الجنة!!

وفي بعض ما يتناقله الناس أنّ قراءة سورة الأنعام إحدى عشرة مرة تنفع في كذا، وقراءةَ سورة يسن إحدى وأربعين مرة تنفع في كذا، وقراءةَ سورة الفتح عددا من المرات تنفع في كذا، وقراءةَ سورة الدخان تنفع في كذا.

وغدا بعض المسلمين يسأل جاهداً عن السورة تفتح قراءتُها نصيبَ الزواج، وعن السورة التي تقضي الدَّين، والسورة التي تقرِّبُ البعيد، والسورة التي تُطلق سراح السجين!

يريدون بكل ذلك بركة القرآن الكريم، ولا يرون بركته إلا بقراءته، بل ولا يخطر في بالهم إلا القراءة.

وبالفعل هم يقرؤون ويقرؤون، ثم لا يفعلون شيئاً ولا هم يريدون أن يفعلوا شيئاً، بل لا يفكرون أن القرآن يطلب منهم شيئاً.

لقد حازوا بقراءتهم البركة كلها – كما يزعمون- وكفى.

ولكن القرآن الكريم – أيها الإخوة - كتاب هداية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، وإنما ينال بركته من اتبع هُداه فأتمر بأمره وانتهى عن نهيه ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]، بينما يُحرَمُ بركةَ القرآن من لم يعمل بما فيه، ولم يفهم أوامره ونواهيه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124].

القرآن الكريم كتاب هداية ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]، وإنما ينال بركته من تدبر آياته واستمسك بتعليماته فيكونُ بذلك قد تلاه حق تلاوته ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43] بينما يُحرَمُ بركة القرآن من أقام حروفه وضيّع حدوده.

قال القرطبي المفسر: (ألا وإنّ الحجة على من علِمه فأغفله أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً، كان القرآن حجة عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**القرآن حجة لك أو عليك**» خرجه مسلم).

القرآن الكريم كتاب هداية ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: 2، 3]، وإنما ينال بركته من اهتدى بهديه وسار على نهجه، بينما يُحرمُ بركتَه من ناداه القرآن فلم يجبه ودعاه فلم يلبه.

روى الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء عن محمد بن علي المادرائي، قال: كنت أجتاز بقبر ابن طولون، فأرى شيخاً ملازماً له، ثم لم أره مدة، ثم رأيته، فسألته، فقال: كان له عليَّ أيادٍ، فأحببتُ أن أصله بالتلاوة.

قال: فرأيته في النوم يقول: أحب ألا تقرأ عندي، فما تمر بي آية إلا قُرعت بها، ويقال لي: أما سمعت هذه؟ فأين عملك بها؟!

أيها الإخوة:

حاز المسلمون في عصور الخيرية الأولى أعظمَ البركة من القرآن، عندما قرؤه وفهموه، وعملوا بما فيه ثم علموه، كانوا لا يسمون القارئ قارئاً حتى يقرأ ويعلم ويعمل، عاشوا مع القرآن وعاش معهم.

رفع أحدهم صوته أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2] فصار يخفض صوته حتى تظن أنه مريض!

قطع أحدهم النفقة عمن آذاه فنزل القرآن يقول له ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: 22] فأعاد النفقة وحلف بالله أنه لن يقطعها بعد!

خالف أحدهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحذّره القرآن ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63] فبادر إلى طاعة رسول الله.

وهكذا كان القرآن يصحّح لهم أعمالهم، ويقوّم لهم أقوالهم، ويحيا معهم أيامهم ويطوي معهم ليلهم، فيعيش معهم ويعيشون معه وله وبه...

ولعمري إنها البركة الحقيقية للقرآن التي جعلتهم خير أمة أخرجت للناس.

يقول (ول ديورانت) في قصة الحضارة: (في القرن السابع الميلادي ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) في أسرة فقيرة في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة قليلةُ السكان، أهله من قبائل البدو الرُّحَّل، إذا جُمعَت ثروتُهم كلها فإنها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة! ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك قد فتحوا نصف العالم القديم، والحق أنّ ذلك الحادثَ الجللَ الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، لهو أعجب الظواهر!).

ونقول: إنّ سبباً واحداً كان وراء ما حدث هو هذا القرآن العظيم، عندما تعامل معه ذلك الجيل تعاملاً صحيحاً، قراءةً ثم فهماً ثم عملاً ثم تعليماً؛ وهذه بركة القرآن.

قَالَ سيدنا عبد الله بْنُ مَسْعُودٍ: (لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ – الهذ سرعة القراءة –، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ –الدقل النخلة كثيرة الحمل– ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ).

وَقَالَ شعبة: قَالَ رجل لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي رَجُلٌ سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً وَاحِدَةً أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ الَّذِي تَفْعَلُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا وَلَا بُدَّ، فَاقْرَأْ قِرَاءَةً تُسْمِعُ أُذُنَيْكَ، وَيَعِيهَا قَلْبُكَ).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ وَأَنَا أَقْرَأُ (سُورَةَ هُودٍ) فَقَالَتْ: يَا عبد الرحمن: هَكَذَا تَقْرَأُ سُورَةَ هُودٍ؟! وَاللَّهِ إِنِّي فِيهَا مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَمَا فَرَغْتُ مِنْ قِرَاءَتِهَا.

وروى أبو عمرو الداني بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً.

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. (مصنف عبد الرزاق)

وفي موطأ مالك: أنه بلغه أن عبد الله ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها.

وروى عن أبيه عمر أنه تعلم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنةً! فلما ختمها نحر جزوراً.

وقال عبد الله بن مسعود: إنا صعب علينا حفظُ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العملُ به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به.

فالحاصل أيها الإخوة، إنّ البركة الكاملة للقرآن إنما تنال بقراءته ثم بفهمه ثم بالعمل به ثم بتعليمه.

وإنّ مبادئ المنطق السليم تدل على أنّ هدف المتكلم من كلامه أن يفهمه المخاطب ثم يعملَ به، أما أن يقتصر على قراءته وترديده، بل وتجويده، دون فهم ودون عمل، فأية بركة تنتظر القارئ وهو على هذه الحالة؟!

إنّ خطة العلاج التي يكتبها طبيب لمريض، يكتبها له لا لتقرأ فحسب، أو ليكثر المريض من قراءتها ويكتفي، أو حتى ليجودها، بل يكتبها لتقرأ ثم لتفهم ثم ليعمل بها، أما إذا اكتفى المريض بالقراءة فليس يُدرى أيةُ حالة خير ترجى له.

فالقرآن كتاب عمل وجِد، فمن أراد بركته فليتدبره وليتبعه ولا يبقي نفسه واقفاً عند التلاوة وحسب.

بقي أن أشير – أيها الإخوة- إلى أنّ أحاديث كثيرة وردت في ثواب قراءة القرآن الكريم، كحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«مَن قرأَ حرفاً من كتابِ الله فلَهُ بِهِ حسنة، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أَقول: «الم» حرف، ولكن «أَلف» حرف، و «لام» حرف، و «ميم» حرف»** (الترمذي).

وفضل قراءة القرآن لا يُنكر حين تكون القراءة خطوةً نحو الفهم والعمل، وأرى أنّ أحاديث الفهم والعمل تفسر أحاديث القراءة، أخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسولُ

الله صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ القرآن فَاستظهره، فأحَلَّ حلالَه، وحرَّم حرامَهُ، أدخله الله بِهِ الجنة، وشفَّعه في عشرة من أهل بيته، كلُّهم قد وجبت لهم النار**»

فلعلنا نستطيع القول إنّ أحاديث القراءة مطلقة، وتقيدها أحاديث الفهم والعمل. والله أعلم.

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور المسلم أن يعتقد أنّ بركة القرآن بتلاوته وحسب، فنتج عن هذا الفهم الخاطئ عددٌ لا بأس به من المسلمين يقرؤون القرآن ولا يفهمون بعض مفرداته، ولا يسعون لفهمها ويقرؤون القرآن ولا يعملون بتعليماته ولا يفطنون أنه يدعوهم للعمل.

يقرأ أحدهم ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1] وهو منهم، ويقرأ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1] وليس منهم، ويقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58] ويحبس من أمانات الناس ما يحبس، وأخشى ما يُخشى على هذا أن ينزل به قول القائل: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه.

والصواب أن بركة القرآن في قراءتِهِ وفهمِهِ والعملِ به وتعليمِه.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

قصرُ بركة القرآن على قراءته وحسب؛ تصور غير صحيح، والصواب في مفهوم بركة القرآن الآتي:

1- بركة القرآن في قراءته وفهمه والعمل به ثم تعليمه.

2- أهمُّ عنصرِ قوةٍ لسيادة هذه الأمة القرآنُ الكريم، فإذا عادت الأمة إليه عادت لسيادتها، ولا تكون العودة بترتيل ألفاظه فحسب بل بتحكيمه في الحياة واتباع أوامره وانتهاج هديه.

3- رأى الجيل الأول القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويعملون بها في النهار فسعدوا وأسعدوا.

4- هذه الخطبة ليست دعوة لترك القراءة ولكنها دعوة لفهم القرآن والعمل به وتعليمه.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثّر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم بركة القرآن، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين